تجليات الدلالة السياقية في تفسير كتاب الله العزيز لهود بن محكم الهواري الأوراسي

بحيدة عبد العزيز، طالب دكتوراه لغة وأدب عربي، جامعة أدرار
- البريد الإلكتروني: azizbh1990@gmail.com

الملخص:

تهتم هذه الدراسة بأساس معرفة علاقة السياق و دلالته ، ومحاولة إبراز علاقة الدلالة بذلك ، جاعلا من تفسير كتاب الله العزيز للشيخ هود بن محكم الهواري الأوراسي الجزائري أنموذجا تطبيقيا لمعرفة تجليات ذلك، و إسقاطات نظرية الدلالة السياقية عنده من خلال تقسيمات علماء اللغة المحدثون السياق إلى : سياق لغوي ، وعاطفي ، وثقافي ، وسياق الموقف ، ممثلا لهذه الأقسام السياقية مما اعتمده المفسر في تفسيره من إبراز للمعاني و الدلالات المختلفة للنص القرآني ، مشيرا إلى أصالة وباكورة قضية السياق ونظريته في الدرس اللغوي قديما وحديثا.

الكلمات المفتاحية: الدلالة ; السياق ; تفسير كتاب الله ;هود بن محكم الهواري الأوراسي.

Abstract:

This study is concerned with the basis of knowledge of the relationship of the context and its significance, and try to highlight the relationship of significance, making the interpretation of the book of God Almighty Sheikh HUD BIN MOHKAM HOUARI EURASIAN The Algerian model applied to know the manifestations of it, and projections of the theory of contextual significance to him through the division of modern linguists context to: Linguistic, emotional, cultural, and context context, representing these contextual sections, which the interpreter adopted in his interpretation of highlighting the different meanings and meanings of the Qur'anic text, referring to the originality and the origin of the context and its theory in the linguistic lesson.

Mots clés: Significance; Context ; Interpretation of the Book of God; HUD BIN MOHKAM HOUARI EURASIAN.

تشكل المفردة القرآنية المرجع المعرفي الذي يتوخى منها الوصول إلى المعنى المراد منها ضمن سياقاتها الواردة فيها ، و يتأكد الأمر في كلام رب العالمين، لدى نجد أن أولى ما عني به أهل اللغة و التفسير فقه مسالة السياق، و أثرها في فهم دلالة النص القرآني، والوقوق عند تحقيق المفردات، و تتبع دلالتها في الإطار الكلي المتكامل لبنية المعنى، ومن ثمة كان للمفردة في القرآن دورها المحوري في بنيته بتلك السياقات المتعددة، وبالرغم من ما تتمتع به من حيوية دلالية، إلا أن هذه الدلالة ليست مانعا أن ترد بسياقات مختلفة عن باقي السياقات، وهذا عامل مساهم في استجلاء المعنى و توضيحه، باعتبار أن المفردة القرآنية ذات مدلول واضح بحيث تعتبر معه مصطلحا له شكله و مضمونه ، وفي الوقت نفسه يؤدي تكرارها إلى احتمال معاني جديدة بالنسبة للسياق الواردة فيه، وعليه فان لها دورا أساسيا بتعدد مواضعها وتكرارها [1] ، واعتمادا على هذا فان المفردة بسياقتها المتنوعة تنبثق عنها معاني خادمة للمعنى ويمنحها ذلك توجيها دلاليا للمعاني القرآنية ، ولن يتأتى هذا إلا بضبط السياق وحده، ومن هذا تتجلى أهمية المفردة القرآنية وسياقاتها المتعددة في فهم دلالة نص كلام الله .

باعتبار ان أي فهم على غير الصواب من حيث المفردة و معانيها، يؤدي حتما إلى القصور في فهم مقصدية ودلالة النص القرآني المنزه، أو الميل والعدول عن توجه الشارع الحكيم في تبيان الأحكام، ولربما شكل لك خطرا على مستويات عدة .

ولقد شغلت مسالة الدلالة و السياق بال أئمة اللغة، و أرباب البلاغة ، وسيطرت على ساحةفكر المفسرين، فأخذت حيزا واسعا من التنظير و التضييق منذ القدم، ولا غرابة في ذلك إذا وجدنا أن العرب قد اعتنوا بإصلاح ألفاظهم و تهذيبها ، فالمعنى أقوى عندهم و أكرم عليها و أفخم قدرا في نفوسها [2] لما له من رفعة ومكانة في بيان القصد من الخطاب عموما .

[1] –ينظر : وجوه من الإعجاز القرآني ، مصطفى الدباغ ، مكتبة المنار الزرقاء ، ط 2 ، 1985 . ص 28 .

[2] –ينظر : الخصائص ، ابن جني ،تح محمد علي النجاردار الكتاب العربي بيرو لبنان ج1،ص:280

وفي صدد بيان معاني مفردات القرآن وسياقاتها ، وتحقيق المفردات و الالفاظ كان الراغب الاصفهاني أول الداعين إلى نظرية المفردة القرآنية و سياقها، حين قال : " ا ن اول ما يحتاج ان يتشغل به من علوم القرآن ، العلوم اللفظية ، ومن العلوم اللفظية ، تحقيق الألفاظ المفردة ، فتحصل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يرد ان يدرك معانيه ، كتحصيل اللبن في كونه من اول المعاون في بناء ما يريد ان يبنيه ، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط " [1]، ومما يدرك من كلام الراغب ان فهم دلالات مفردات القرآن و سياقها يتعدى في الأثر النص القرآني إلى ما سواه من العلوم ، وان مسالة تحقيق المفردات ومعرفة سياقاتها هي الضابط العام في معرفة إبهام كل قصد وخطاب ، ولهذا ارتأيت ان أقف عند هذه المسالة في مقالي المتواضع ، محاولا ان ابين بعض تجليات السياق و دلالاته عند المفسرين ، مخيرا تفسير كتاب الله العزيز للشيخ هود بن محكم نموذجا لذلك .

وفي البداية أعرب عن منهجي في هذا المقال حيث خصصت جزء منه للتعريف و الترجمة المختصرة لهود بن محكم الهواري الاوراسي، ثم التعريف بتفسيره، ثم فصلت الكلام على مباحث دلالة السياق و تجليات ذلك عنده .

1) ترجمة المفسر الشيخ هود بن محكم الهواري الاوراسي :

أحاول من خلال هذه الترجمة المختصرة ان أبين من يكون الشيخ هود بن محكم ، وان كان الأصل في ذلك أن كتب التاريخ التي بين أيدينا لم تزودنا بقدر كاف عنه ، وعن حياته، و سيرته عموما، إلا بعض الإشارات المتناثرة في كتب السير و التراجم و الطبقات ، الأمر الذي جعل اللبس و الغموض قائما عن معالم حياة الشيخ هود بن محكم .

وعليه أقول انه الشيخ المفسر هودبن محكم الهواري الأوراسي الجزائري، يصل امتداده لقبيلة هوارة،يذكر في علماء ومفسري القرن الثالث هجري ، إننا لا نعلم بالضبط و التحديد متى ولد الشيخ هود بن محكم ، ومن غير الجزم بذلك يقدر ان ولادته كانت في العقد الأول أو الثاني من القرن

[1] –المفردات في غريب القران،: الراغب الاصفهاني،تح:محمد خليل عيتاني،دار المعرفة،بيرو لبنان، ط3، ج 1 ص 06 .

الثالث الهجري [1] ، واختلف أيضا في سنة وفاته ، فلم تشر المصادر إلى ذلك ، شانها شان ولادته ، و الذي يظهر أنها كانت في العقد الثامن أو التاسع من القرن الثالث الهجري ، أي حوالي سنة ثمانين ومائتين استنادا لما ذكره المؤرخون و أهل السير مجمعين بذلك على انه مصنف ضمن علماء الطبقة السادسة (250-300 هـ) ، وتزامن ذلك تاريخيا مع نهاية الدولة الرستمية [2] ، أي في تلك الحقبة المزامنة لذلك، و بداية القرن الرابع تقديرا لا تحديدا.

نشأ الشيخ هود بن محكم في قبيلة هوارة البربرية المنتسبة إلى هوار بت اوريغ بن برنس [3].

أما عن مكانته العلمية فيقول محقق تفسيره الأستاذ بالحاج بن سعيد شريفي : " إن المصادر التي بين أيدينا لم تمدنا بكثير من الأخبار عن مكانته العلمية ، سواء في فترة صباه ، أو شبابه ، أو شيخوخته ، ولكن الذي يبدو انه قد أخد العلم في طفولته عن والده بعد حفظه لكتاب الله تعالى ، وانه قد تفقه في مجالس العلم و حلقات الدرس التي كانت تعقد بالمساجد في القرى الجبلية ، أما عن فترة شبابه فمن المؤكد أن الشيخ هود بن محكم قد ترك قبيلته هوارة منشغلا بطلبه للعلم من المراكز العلمية المنتشرة آنداك ،و المشعة بأنواع المعرفة و بالعلوم الدينية ، ومما لا شك فيه أن هذه المراكز كانت دافعا وحافزا للشيخ هود بن محكم في شده للرحال وطلبه للعلم ، الأمر الذي يرجح من وراءه زيارته لهذه المراكز العلمية، ومهما يكن الأمر فانه استقر أخيرا بموطنه الأول بعد تضلعه في العلم، واتساع معرفته،وعلمه، جاعلا من منطقة أوراس محط أنظار المتعلمين قاصدين إياه للاقتباس من علمه وأخلاقه وتجاربه .

يقول الإمام أحمد بن سعيد الشماخي فيمن قصدهم الناس للتعلم : " ومنهم هود بن محكم الهواري ،و هو عالم متفنن غائص ، وهو صاحب التفسير المعروف ، وهو كتاب جليل في تفسير كلام الله ،لم يتعرض فيه للنحو و الإعراب ، بل على طريقة المتقدمين"[4] ، ومما سبق ذكره يتضح

[1] –ينظر : تفسيركاب الله العزيز،الشيخ هود بن محكم ، مقدمة المحقق دار البصاءرللنشروالوزيع، ج 1 ص 13 .

[2] –ينظر : الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط ، المجمع الملكي للبحوث الحضارة الإسلامية : ج 1 ، ص 31 .

[3] –هو هوار بن اوريغ بن برنس بن بر بن قيس بن عيلان، ينظر: جمهرة انساب العرب ، ابن حزم الاندلسي، ص 495 .

[4] –كتاب السير ، أحمد بن سعيد الشماخي .،

إن لهود بن محكم مكانة عالية رفيعة بين قومه وبين أهل زمانه و قبيلته و القبائل المجاورة لقبيلته في عصره .

2) التعريف بتفسير كتاب الله العزيز للشيخ هود بن محكم :

إن أهم مؤلف اشتهر به الشيخ هود بن محكم هو تفسيره الموسوم ب : تفسير كتاب الله العزيز ، وهو مؤلف جامع لتراث الإباضية باعتبار إن عقيدة الشيخ هود بن محكم متصلة بذلك ، جمعه وصنفه في القرن الثالث هجري ، فسر فيه كلام رب العالمين ، واقدم إشارة إلى تفسيره باسمه، وردت في كتاب السيرة و أخبار الأئمة لأبي زكرياء بقول مفاده ان ثمة تفسير لهود بن محكم ، مر عليه وقتا من الزمن لم يعرف إلا بفضل هذه الإشارة من أبي زكرياء، ولقد أشار محقق التفسير الأستاذ بالحاج بن سيعد شريفي إلى ذلك في مقدمة تحقيقه حيث قال : " لقد بحثت في اغلب المصادر الإباضية التي وصلتنا حتى الآن ، وقارنت بينها ، فوجدت أن أقدم مصدر أشار إلى تفسير الشيخ هود الهواري هو كتاب السيرة و أخبار الأئمة لأبي زكرياء ، هذا ما جاء فيه : وذكر ان رجلين اختصما على تفسير هود بن محكم الهواري حتى بلغ تشاجرهما قبيلتهما، وكادت الحرب تقوم بينهما ، وتصاف الفريقان وكاد الشر يقع بينهم ، فلما رأى ذلك ابو محمد جمال [1]نزع المصحف من بينهم أي : الفريقين المتنازعين عليه، فقسمه نصفين ، فوافق قرطاسا بين النصفين لم يكتب ،و أعطى لكل نصفا و زال الشر 2 ، ومن هذا السرد تتجلى مكانة و قيمة التفسير في ذلك العصر و لا زال إلى يومنا هذا يحظى بمكانة لدى أهله .

يعد تفسير كتاب الله العزيز للشيخ هود بن محكم من التفاسير الأولى ، والتي برزت في أوائل عهد التدوين ، ويعتبر كذلك أقدم تفسير جزائري وصل إلينا كاملا 3 ، وصلت إلينا مخطوطاته في القرون الأربعة الأخيرة متفرقة أجزاؤها متعددة نسخها ،وهذا عامل ربما يفضي بنا إلى طرح

[1] –هو ابو محمد جمال الدين المديوني من علماء النصف الاول من القرن الرابع الهجري،ينظر :كتاب السير ،الشماخي،ج1،ص:245.

[2] –ينظر : مقدمة تحقيق تفسير كتاب الله العزيز ،مرجع سابق، ج 1 ص 19

[3] –ينظر : المرجع نفسه مقدمة المحقق ،ط،الاولى: ج 1 ص 12

تساؤل مفاده هل ينتسب التفسير فعلا لهود بن محكم طالما أن النسخ متعددة أم لا ؟، ولقد أجاب الأستاذ المحقق إجابة شافية كافية عن ذلك في مقدمة تحقيقه،حيث تحدث من خلال ذلك عن صحة نسبة المؤلف اليه ،ولست هنا بصدد بيان ذلك ،هذا وقد طبع التفسير في أربع مجلدات صادرة عن دار البصائر بالجزائر سنة 1990 بتحقيق و تعليق بالحاج بن سعيد شريفي و أخرج للنور .

3)تعريف الدلالة السياقية:

اختلف أهل الدلالة في ضبط معالم تعريف علمي لمفهوم الدلالة السياقية، بيد أنهم يكادون يجمعون على أنها تلك الدلالة التي يقصدها المتكلم، و يفهمها السامع من خلال الحدث الكلامي، تبعا للظروف المحيطة به، عبر ما يتحدد للألفاظ من دلالات أثناء الاستعمال مراعاة للمقام المتواجدة فيه .

يقول محمد أديب صالح في إشارة إلى ذلك المفهوم للدلالة السياقية :" و النص هو الذي يكون معناه الأصلي مقصودا من السياق "1، وظاهر الفهم لهذا إن السياق حامل للمعنى الأصلي، وموضح لقصده، ثم إن مسالة السياق ودلالته مسالة قديمة، شغلت الأصوليين أكثر من غيرهم ، باعتبار حرصهم على استقراء أوجه الدلالة ، و تتبع علاقة دلالة الألفاظ بعضها ببعض ، يضاف إلى هذا إرادة المتكلمين، و قصدهم، وسياق الألفاظ2، ومن هذا فان إرادة المتكلم، و قصده، وسياقه، عوامل دالة على تحديد المراد .

واهتم البلاغيون بالسياق و حيثياته أيما اهتمام ، وحددوا ما تقوم عليه أبحاثهم من قضايا المجاز و الاستعارة، و إدراك القرينة الدالة على السياق، و في هذا الصدد يعبر تمام حسان بقوله :" لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم " 3، الأمر الذي يؤكد ذلك

[1] –ينظر تفسير النصوص في الفقه الإسلامي ، محمد أديب صالح .مكتبة زهراء الشرق،لبنان،ج1،ص:142

[2] –ينظر : بين اللغة و التشريع ، خليل السيد،دارالمعارف للطباعة والنشر،بيروت،ص:46 .

[3] –اللغة العربية معناها ومنباها ، تمام حسان،مكبة زهراء الشرق للطباعة والنشر،القاهرة،ط2000،ص:377 .

الاهتمام المبكر بقضية السياق ، و علاقته بتحديد دلالة المعنى للألفاظ أو المفردات، و ما يتشكل منها من نصوص، و يتعلق الأمر اكثر بالنص المقدس المتجسد في كلام رب العالمين، حيث يتاكد هذا الاهتمام، ومن هذا المنطلق المفاهيمي، فان دلالة أي كلمة، و اي مفردة، بأي لغة كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بمنحى سياقها المحدد لمعناها ضمن كل متكامل ، فلا يمكن تحديد تلك التلوينات الدلالية إلا في قالب نمط السياق العام للمقصود من أي خطاب .

4)تجليات إشارات الدلالة السياقية في تفسير الشيخ هود بن محكم الهواري

إن من يتصفح تفسير كتاب الله العزيز للشيخ هود بن محكم الهواري ، يدرك تمام الإدراك أن المفسر قد سلك ذلك النهج المبين لمعالم معتمدة من طرف النظرية السياقية الحديثة ، قصد إبراز و كشف دلالة المفرداة القرآنية خصوصا، وتبيان دلالة المفردة اللغوية عموما ، و يتجلى ذلك عندالشيخ هود بن محكم الهواري من خلال حصر السياقات الواردة فيها تلك الألفاظ و المفردات، مما يمكنه من إدراك قيمة و أثر المفردة ضمن سياقها ، ولهذا أجد الشيخ هود بن محكم الهواري في غالب تفسيره قد أولى العناية البالغة لهذا المفهوم، من خلال تلك الترابطات السياقية التي ذكرها، و أوردها في مناسبة كل آية ،أو مفردة قرآنية ، وهذا المنهج ليس غريبا عنه، ولا عن من سبقه من المفسرين في مسالة نهجهم ذلك المنهج .

و المتتبع للدرس الدلالي العربي منذ بواكير بوادره، يدرك ان مسالة اللفظ و المعنى و صلتهما بالسياق، كانت نقطة إرتكازية للدرس الدلالي من حيث التنظير ، وهذه نقطة أسالت حبر ومداد كثير من العلماء بداية من الراغب في تحقيقه لمفردات و ألفاظ القرآن ، يضاف لذلك بصمة الجرجاني في تنظيره و تقعيده لنظرية السياق . وهي بصمة علمية لولاها ما كان الراغب: مستلهما بتأثيره في فكره معالم العلم اللغوي المستنبط من القرآن و ألفاظه، و المؤسس على نظرية السياق ، إذ يتجلى ذلك التأثير عنده في محاولته حصر استعمالات المفردة ضمن سياقاتها المتعددة ،محددا بذلك معانيها، و دلالاتها الممكنة ، معتمدا على تلك العلاقة الجوهرية القائمة بين اللفظ و معناه ،

وهذا ما تبلور فعلا في ثنايا الدرس الدلالي الغربي خصوصا ، وذلك حينما عبر فيتنجشتاين (wittgnstain) على أن الكلمة ليس لها معنى إلا ضمن تركيبها السياقي، فقال:" لا تفتش عن معنى الكلمة ، وإنما عن الطريقة النى تستعمل فيها "1 ، وهذا الذي يدرك من خلاله إن معنى الكلمة متعدد بتعدد السياقات الواقعة فيها ، أو بعبارة أخرى تبعا لتوزيعها اللغوي 2 ، ومهما يكن الأمر فقضية السياق و تجلياته، قضية ذات بال في الدرس اللساني و الدلالي قديما وحديثا، اعتراها التطور من حيث المفهوم و التأثير بعد ما كان الأمر فيه حكرا على الجانب اللغوي على مستوى المعجم فحسب ، وتلك مسالة قد يعاب بها كون بهذا الطرح عاجزا عن تحديد وضم جميع استعمالات المفردة ، ولكون هذا المعجم عبارة عن قائمة واسعة جدا من المفردات، فانه يتعذر حصر كل السياقات فيه لأي مفردة 3، اي يجب توسعة القضية لتمس مجالات ومستويات أخرى قادرة على التفرقة بين معاني الكلمات و الألفاظ ، ولرفع اللبس الدلالي عن المفردات ، ولن يتم هذا إلا بإشراك عوامل كفيلة بتقديم الدلالة التامة للمفردة او اللفظ .

يقول عبد القادر الفاسي : " اختيار المفهوم الملائم من بين لائحة المفاهيم التي يعبر عنها اللفظ المشترك يتطلب مجهودا معرفيا خاصا، و يتسبب أحيانا في أخطاء ، ويقع رفع الالتباس عن طريق السياق اللغوي المباشر ، أو السياق الخطابي أو الوضع الذي يحدث فيه التواصل ، اي كل مصادر المعلومات المتوافرة لرفع اللبس " 4،ثم ان إزالة الإبهام ههنا لا يمكن رفعها إلا بتداعي حظور السياق اللغوي و تجلياته، قصد إظهار المعنى المفرد للفظة مثلا، و استظهار معانيها المتعددة، إستنادا لما ذكر في المعاجم .

[1] –مدخل إلى علم الدلالة الألسني ، موريس أبو ناصر ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد (ج) 1992 رقم 19/18، ص 33 .

[2] –ينظر: علم الدلالة ، مختار عمر،عالم الكتب ،ط5 1998ص:69 .

[3] –ينظر : مدخل إلى علم الدلالة (مرجع سابق) ص 31 .

[4] –السيانيات و اللغة العربية ، عبد القادر الفارسي ، منشورات عويدات ، بيروت ط 1 ، 1986 ص 372 .

و لهذا السبب كان تقسيم علماء اللغة المحدثون مسالة السياق إلى أربعة أنواع منه متمثلة في :1

1- السياق اللغوي . 1- Linguistic- contexte

2- السياق العاطفي . 2- Emotional – contexte

3- سياق الموقف . 3- Situationnal – contexte

4- السياق الثقافي . 4- Cultural – contexte

وبعد ما تقدم من تفريش للموضوع، يمكن القول إذا كانت الدلالة ممثلة صميم الدراسات اللغوية، فان السياق يعد روح الدلالة ، ومن هذا المنطلق أحاول ابراز معطيات مباحث دلالة السياق من خلال المجلدات الاربع لتفسير الشيخ هود بن محكم الهواري في صنعته، قصد الوقوف على جانب من جوانب معالجة المفسرين لمسالة السياق، وأثرها عندهم في استظهار المعنى و القصد ،واصالة جهودهم في التاسيس لنظرية السياق ، والعمل على بلورتها وتجسيدها، ولتكن البداية بعرض مبحث السياق اللغوي و تجلياته عند الشيخ هود بن محكم الهواري .

إذ يعرف السياق اللغوي على انه تلك البيئة اللغوية المحيطة بصوت ،أو فونيم، أو مورفيم ،أو كلمة، أو عبارة ،أو جملة [2]، شريطة ارتباطه بالمداخل المعجمية، و الحامل لمدلوله من سياق لأخر ، ويتجلى هذا المفهوم بكثرة في الخطاب القرآني، و في تفسير المفسرين له ، ولي ههنا بالتمثيل مما أشار إليه الشيخ هود بن محكم في مواطن عدة من تفسيره، مبرزا بتلك الإشارات اختلاف المداليل من سياق لأخر .

يقول الشيخ هود بن محكم في بيان تفسير دلالة لفظة: " ضرب " الواردة في كثير من المواطن ،من ذلك قوله تعالى ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ

[1] –ينظر : علم الدلالة ، مختار عمر ،مرجع سابق ص 69–71 .

[2] –ينظر علم الدلالة ، عوض حيدر ،ص: 158 .

وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ [1] قال بعضهم : يبدأ فيعضها بالقول ، فإن أ بت هجرها، فان أبت، ضربها ضربا غير مبرح، أي غير شائن "[2] ولنا أن نقف ههنا عند قوله : " غير مبرح أي غير شائن " بغية إدراك معنى المفردة من خلال السياق الواردة فيه ، فدل بها ههنا على مدلول المعاقبة من خلال سياق الآية، والذي يدعم ذلك عنده، ما تقدم قبلها من معنى : (واهجروهن) حيث وردت على صيغة فعل الأمر ، ومن ثمة فهم الشيخ هود بن محكم أن في ذلك تكليف، و أمر شرعي من خلال السياق ، ومعلوم أن التشريع يحتمل الثواب و العقاب، فلاحظ الشيخ هود بن محكم أن المولى عز وجل لما بدا الآية بالهجران ، وما يؤول إليه من تأديب ، فتوصل بذلك إلى دلالة اللفظة"ضرب" على العقاب ، وأشار ثانية إلى معنى آخر لها في سياق غير الأول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَلَقَد ضَّرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[3] فقال : " أي لكي يتذكروا ، فيحذروا أن ينزل بهم ما نزل بالذين من قبلهم " [4]، فظاهر قول الشيخ هود بن محكم يؤكد انه ينحى بمدلول " ضرب" ههنا على أنها بمعنى (ذكر) ، وما يؤكد هذا المعنى هو لفظة (مثلا) الواردة بعدها ضمن سياقها الموالي لها، ذلك أن المثل انما يورد بغية الوعظ والذكير والارشاد،فلما راى ان دلالة المثل متضمنة لنص لغوي اختزلت فيه حادثة ما. دل على معنى (ضرب) في الآية على أنها مفيدة لـ: (ذكر) لعلة أن المثل يذكر بنصه في قول قائله.

ثم أضيف مثالا ثالثا في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِئَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِئَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾[5] ، فقال الشيخ هود بن محكم : " يعني ما يؤخذ منهم من الجزية " [6] فأجده بهذا الموطن يدل بمعنى الضرب ههنا على انه بمثابة :(أقيمت) ،باعتبار أن

[1] –سورة النساء، الآية 34 .

[2] –تفسير كتاب الله العزيز، هود بن محكم الهواري ، تحقيق بالحاج بن سعيد شريفي ، دار البصائر للنشر و التوزيع، ط 1 ،2005 ج1 ص 342 .

[3] –سورة الزمر الآية 27 .

[4] – تفسير كتاب الله العزيز ، هود بن محكم ، مرجع سباق ج4 ص 34 .

[5] –سورة آل عمران ،الآية: 112 .

[6] – تفسير كتاب الله العزيز ، هود بن محكم ، مرجع سابق ، ج 1 ص 280 .

المولى عز وجل في سياق الآية هو بصدد الحديث عن الكافرين وذلتهم ،و المؤمنين وعزتهم ، والذي يعزز ذلك قوله تعالى : " وباؤ بغضب من الله " بعدها مباشرة فاستعمل ذلك مناسبة لشدة غضبه منهم وعقوبته لهم ومما يضاف ههنا أيضاً بعض الكلمات كلفظة (الدين، الأمة، كتب) وغيرها، غير إني إقتصرت على هذا من باب التمثيل فحسب.

ومن خلال هذا أقول أن تلك المواطن التي تجلت فيها إسقاطات معالم السياق اللغوي بمداخله المعجمية في تفسير الشيخ هود بن محكم كثيرة متعددة ، وإلا فهذا تمثيل لا حصر ، وصح القول بان ما يحدد دلالة :(الضرب) في الآيات القرآنية هو سياقها الواردة فيه باعتباره قرينة محددة لذلك .

وأما السياق العاطفي (النفسي) ، فهو ذلك السياق الذي يمكن من خلاله الكشف عن المعاني النفسية، و الوجدانية المكنونة عند الإنسان، و المختلفة في طبيعتها من شخص إلى آخر [1]، ومفاد هذا انه لا يمكن تحديد ذلك القصد الدقيق لخطاب المتكلم إلا باستدعاء حضور السياق العاطفي المقتضي التأكيد ، أو المبالغة ، أو الانفعال، أو بإظهار القوة و الضعف [2]، و هذا من شانه أن يؤثر في ارتباط المتكلم و قصده ، ومن ثمة فان هذا المضمون و الارتباط العاطفي النفسي مختلف من متكلم لأخر [3]، وهذا مرده ذلك التباين الحاصل لدى الأفراد في درجة تقبلهم النفسي لبعض الألفاظ دون سواها ، وهذا المبحث من مباحث السياق ناذر من حيث الاشارات في تفسير الشيخ هود بن محكم،الا ما امكنني الوقوف عنده من إسقاطات متواضعة لذلك .

فلنتأمل تفسير وفهم الشيخ هود بن محكم للآيتين التاليتين حتى تتجلى معالم السياق العاطفي تطبيقا من خلال ما عتمده في تفسيره.

[1] –ينظر معجم علم اللغة النظري ، محمد على الخولي ، مكتبة لبنان ، ط 1982 ص 84 .

[2] –ينظر : علم الدلالة ، مختار عمر،مرجع سابق ص 70 .

[3] –ينظر: علم اللغة مقدمة للقارئ الغربي ، د/ محمود السعران ،دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ص 302 .

يقول الشيخ هود بن محكم في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُواْ أَنْ يَّخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [1]"،: ترفعهم بلهبها فإذا كانوا في أعلاها قمعتهم الملائكة بمقامع من حديد من نار فيهمون فيها سبعين خريفا ، قال الله و ذوقوا عذاب الحريق "[2] هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أجده يدلي بنفس التفسير عند قوله تعالى " وَأَمَّا الذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوا أَنْ يَّخْرُجُوا مِنْهَآ أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ " [3]، فقال ثانية " أي : انه اذا كانوا في أسفلها رفعتهم بلهبها حتى إذا كانوا في أعلاها و أروادو أن يخرجوا منها ضربوا بمقامع من حديد فهووا إلى أسفلها، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار " [4]، ومن ثمة فإننا نلاحظ إضافة الشيخ هود بن محكم لفظة الحريق في تفسيره الأول لآية السجدة ، وفي ذلك إشارة منه إلى أن الله عز وجل اختار لفظة: (الحريق) بعد العذاب ، واختار لفظة (النار) بعد العذاب كذلك في الموطن الثاني ، ومن هنا فان المتلقي يدرك ذلك الشعور و الإحساس القاسي النفسي اتجاه ما تتضمنه لفظة الحريق من حيث الدلالة ، ذلك أنها اشد وقعا على السامع من لفظة النار، وههنا تتجلى حيثيات السياق العاطفي و دلالته، ولو عدنا إلى تفسير الشيخ قبل ذكر لفظة الحريق في سياقها الأول، لوجدنا انه يوحي بان السياق لها فية تفصيل وإيضاح ، وذلك يمتد من قوله : " هَذَانِ خَصْمَانِ اِخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ " [5]، حيث فصل جزاء كل صنف ، وأما في سورة السجدة فلقد وقع الجزاء موجزا بالنسبة إلى الطرفين[6]، ولذلك أضاف الشيخ هود بن محكم لفظة النار موصولة بتفسيره للدلالة النفسية في ذلك ، فلفظة (النار) قد لا تهز المتلقي بذلك القدر الذي تهزه بها لفظة الحريق .

[1] –سورة الحج الآية 22 .

[2] –تفسير كتاب الله العزيز ، هود بن محكم ، ج 3 ص 93 .

[3] –سورة السجدة الآية 20 .

[4] –تفسير كتاب الله العزيز ، مرجع سابق ج 3 ص 306.

[5] –سورة الحج الآية 19 .

[6] –ينظر : التعبير القرآني ، د/ فاضل صالح السامرائي ، دار عمار للطباعة و النشر ط4 ، 1427 ، 2006، ص: 241 .

وعليه، فان الشيخ هود بن محكم قد راعى ذلك السياق العاطفي في تفسيره للآيتين، من خلال استعمال اللفظة ذات المدلول النفسي في سياقها المحقق لمعناها .

و أما سياق الموقف أو الحال، فلعل أدق إشارة له، ما ذكره الراغب في كتابه : " مقدمة في التفسير " على انه من الوجوه التي يعبر بها عن المعاني و يبين بها ، إذ يفهم الشيء بحاله الذي وصف به [1] ، لذا تنبا الراغب بأهمية هذا النوع من السياق و أثره في إبانة المعنى ، وهو الأمر الذي أقرته الدراسات الدلالية الحديثة ،و هو ما يعرف بالتحليل الدلالي، و لست بصدد التوسع في ذلك إلا بقدر ما يحقق لي الغرض منه، و قديما قيل : " لكل مقام مقال"، وإذا بحثنا عن تجليات هذا المقتضى في تفسير الشيخ هود بن محكم، فانه سيتجلى واضحا من خلال تفسيره لقوله تعالى مثلا: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [2]، إذ قال عندها : " قال بعض المفسرين : البأساء : البؤس ،و الفقر ،و الضراء : السقم و الوجع ، قال أيوب: " اني مسني الضر "، وحين البأس أي عند مواطن الجهاد و القتال[3]، و يكاد الأمر أن يتقارب في تفسيره ايضا لقوله تعالى: ﴿ الذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ ﴾ [4]، حيث قال : " أي في الرخاء و الشدة ، وقال بعضهم: في اليسر و العسر و الجهد و الرخاء " [5]، وبناء على كلا التفسرين له في هذا المقام، يتجلى لنا انه يقصد بذلك حال كون المنفق او الصابر متمثلا لذلك ، وهذا باعتبار مدلول الصبر مثلا في الآية الأولى عنده، متغيرا بتغير السياق الموقفي الحالي ، حيث ان استعمال الصبر في موقف محاربة يعني الشجاعة ، و الصبر في موقف النوائب يعني رحب الصدر ، و الصبر في موقف الصمت يعني الكتمان و لقد ورد في القرآن

[1] –ينظر : الخوالد من آراء الراغب الأصفهاني ، في فلسفة الأخلاق و التشريع و التصرف ، صلاح الدين بن عبد اللطيف الناهي ، دار الجيل ، بيروت ط 1987 ص 95 .

[2] –سورة البقرة الآية 177 .

[3] –تفسير كتاب الله العزيز ، هود بن محكم ، ج1 ،ص: 160.

[4] –سورة آل عمران، 134.

[5] – تفسير كتاب الله العزيز هود بن محكم ، ج1 ص 287 .

من خلال الآية السابقة ما يجمع كل تلك المعاني " [1]، و هي اشارة ضمنية من الشيخ هود بن محكم لذلك على سياق الموقف و الحال، بناء على ضوء علمي المناسبة وأسباب النزول .

وبهذا يبقى سياق الموقف و الحال من الامور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة عليه أحوال المخاطبين ،او الفاعلين ، وما يقتضيه حال الفعل و هو محتاج الى الدلالة عليه .

و اما السياق الثقافي فيهتم باللفظة ضمن بيئتها الاجتماعية او الثقافية المستعملة فيها ، حيث انه يقتضي تحديد المحيط الثقافي او الاجتماعي الذي يمكن ان يستخدم فيه الكلمة [2]، اذ يفهم من هذا ان اي صورة ذهنية لأي لفظ تختلف باختلاف السياق الثقافي الاجتماعي الوارد فيه ،و أجد إسقاطات هذا في تفسير كتاب الله العزيز نادرة جدا ، غير أني أمثل بالمفهوم المعجمي لمادة: (كفر) ، و الذي يرى الشيخ هود بن محكم من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [3]، ان المقصود بها الزراع، اي :الفلاحون، باعتبار أنهم يغطون البذور في التراب، وهذا المعنى هو الذي توحي به الكلمة داخل التركيب و المرتبطة بثقافة مجتمع معين .

يقول الشيخ هود بن محكم في تفسير الآية المتقدمة: (ليغيض بهم الكفار، أي يخرجون فيكونون قليلا كالزرع حين يخرج ضعيفا، فيكثرون و يقوون فشبههم بالزرع ...)[4]، ومن هنا يفهم بأنه يدل بالمفردة على غير مدلولها المعجمي، بل قصد به دلالة سياقه الدالة على الفلاحين، و أشار إلى معان أخرى في سياقات مغايرة لها ضمن مواطن كثيرة من الآيات الواردة فيها مفردة (كفر) .

ومما أخلص إليه في الأخير إنني سعيت لمحاولة إبراز بعض النماذج التطبيقية من خلال تلك الإشارات للدلالة السياقية و تجلياتها في تفسير كتاب الله العزيز،للشيخ هود بن محكم، وما ذلك إلا دليلا على أهمية تسييق الألفاظ عند جملة المفسرين لكتاب الله تعالى، واخترت الشيخ هود بن محكم

[1] –ينظر المفردات ، الراغب الاصفهاني ، (تحقق : عيتاني) مادة صبر .

[2] –ينظر علم الدلالة ، أحمد مختار عمر ، مرجع سابق ، ص 71 .

[3] –سورة الحديد الآية 20.

[4] –تفسير كتاب الله العزيز هود بن محكم ، ج 4 167 .

أنموذجاً من جملتهم، كمحاولة منه لتحديد دلالتها في إطار سياقاتها المتعددة ، فحاولت أن أتوصل إلى إبراز رأي الشيخ هود في نظرية السياق و مباحثها، كيف لا و هو الذي جعل من السياق ركيزة رئيسة في تحديد القصد من مراد الله تعالى من خلال تفسيره ، واستنتجت حرصه البالغ على تفعيل ما تدعو إليه نظريات السياق الحديثة من إجراءات كفيلة بضمان المعنى السليم والقصد البين من كل خطاب وهو كغيره من المفسرين منذ وقت مبكر مؤكداً على مسألة السياق القرآني ودلالة مفرداته

كما أمكنني الوقوف عن تجليات كل تلك الأقسام السياقية في تفسيره ممثلاً لكل صنف منها.

قائمة المراجع

القران الكريم ،رواية ورش عن نافع

1-الخصائص ، ابن جني ،تح محمد علي النجاردار الكتاب العربي بيرو لبنان ج1،

2-الخوالد من آراء الراغب الأصفهاني ، في فلسفة الأخلاق و التشريع و التصرف ، صلاح الدين بن عبد اللطيف الناهي ، دار الجيل ، بيروت ط 1987 .

3-السيانيات و اللغة العربية ، عبد القادر الفارسي ، منشورات عويدات ، بيروت ط 1 ، 1986

4-الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط ، المجمع الملكي للبحوث الحضارة الإسلامية : ج 1 ،

5-اللغة العربية معناها ومنباها ، تمام حسان،مكبة زهراء الشرق للطباعة والنشر ،القاهرة،ط2000،ص:

6-المفردات في غريب القران،: الراغب الاصفهاني،تح:محمد خليل عيتاني،دار المعرفة،بيرو لبنان، ط3، ج 1

7- بين اللغة و التشريع ، خليل السيد،دارالمعارف للطباعة والنشر ،بيروت

8-تفسير النصوص في الفقه الإسلامي ، محمد أديب صالح .مكتبة زهراء الشرق،لبنان،ج1،

9-تفسير كتاب الله العزيز، هود بن محكم الهواري ، تحقيق بالحاج بن سعيد شريفي ، دار البصائر للنشر و التوزيع، ط 1 ،2005 ج1 ص 342 .

10- علم الدلالة ، عوض حيدر

11- علم الدلالة ، مختار عمر،عالم الكتب ،ط5 1998

12- علم اللغة مقدمة للقارئ الغربي ، د/ محمود السعران ،دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان

13- كتاب السير ،الشماخي،ج1،

14- لتعبير القرآني ، د/ فاضل صالح السامرائي ، دار عمار للطباعة و النشر ط4 ، 1427 ، 2006،

15- مدخل إلى علم الدلالة الألسني ، موريس أبو ناصر ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد (ج) 1992 رقم 19/18، ص

16- معجم علم اللغة النظري ، محمد على الخولي ، مكتبة لبنان ، ط 1982.

17- وجوه من الإعجاز القرآني ، مصطفى الدباغ ، مكتبة المنار الزرقاء ، ط 2 ، 1985 .